١٤

سلسلة قصص الأنبياء

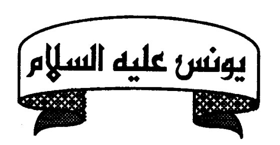
يونس وذو الكفل عليهما السلام

تأليف
الشيخ /بكر محمد إبراهيم

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده
خلف الجامع الأزهر ت ٥١٠٩٨٨٧

رقم الإيداع	١٨١٩٠ / ٩٩
ترقيم دولي	977-5096-61-8





* ذكر يونس عليه السلام في القرآن :

قال تعالى في سورة يونس :

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ .

[الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ . [القلم : ٤٨ - ٥٠] .

* التفسير :

بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم .

فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح - الجلود - وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله - رفعوا أصواتهم - وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكنوا وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ،

وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ، فرغت[1] الإبل وفصلانها - أولادها - وخارت[2] البقر وأولادها وثغت[3] الغنم وحملانها - أولادها - وكانت ساعة عظيمة .

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي آمنوا بكمالهم والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجت بهم ، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون ، فتشاوروا بينهم أن يقترعوا - يجروا

---

(١) رغت الإبل : صوت الإبل يسمى رغاء .

(٢) خوار البقر : صوتها .

(٣) الثغاء : صوت الغنم .

قرعة - فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه .

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه ، فأبوا ذلك عليه ، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا ، لما يريده الله به من الأمر العظيم .

* يونس في جوف الحوت :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر ، وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به في البحار كلها وقيل إنه ابتلع هذا الحوت حوت أكبر منه .

ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك

جوارحه فتحركت ، فإذا هو حي فخر لله ساجدًا . وقال : يا رب اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت بين ليلة وأربعين ليلة .

وجعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية - المظلمة - ويقتحم به لجج الموج الأجاجي - المملح - فسمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى - التراب - فعند ذلك قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه رب العزة الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت - صغرت وخفيت - ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مُغَاضِباً ﴾ أي ذهب إلى أهله غضبان . فظن أن لن نقدر عليه أي فظن أن لا نضيق عليه ونادى في الظلمات :

ظلمة الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ معناه فلولا أنه سبح الله وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه، للبث - مكث - هناك إلى يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت .

ويعني أيضًا أنه لولا أنه كان من المسبحين من قبل أخذ الحوت له المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا .

ومصداق ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل وبعض أصحاب السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : **« يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يتعرف إليك في الشدة »** .

روى ابن جرير الطبري بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش فيه لحمًا ولا تكسر له عظمًا . فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًا ، فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة ! قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾** » .

* * *

* دعاء يونس عليه السلام ، وخروجه من بطن الحوت :

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : « **إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا : يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه في العراء** » .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة ، فسئل ما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء - القرع - وهب الله له أروية - أنثى الوعل - وحشية تأكل من خشاش

الأرض ، أو قال : هشاش الأرض ، قال : فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . رواه ابن أبي حاتم .

والبكرة: أول النهار ، والعشية : آخر النهار .

وقوله تعالى :

﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ أي ألقيناه بالعراء وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار ، بل هو عار منها . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف البدن .

قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ، وقال ابن عباس : كهيئة الصبي حين يولد .

* فوائد القرع الذي نبت على يونس عليه السلام :

إن ورقه في غاية النعومة ، وهو ظليل ، ولا يقربه الذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ، نيئًا ومطبوخًا ، وبقشره وببذره أيضًا ، وفيه تقوية للدماغ وغير ذلك من الفوائد .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من الغم والكرب والضيق الذي كان فيه وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا وكان من المؤمنين المتقين .

*الدعوة المستجابة :

روى ابن جرير بسنده إلى سعد بن مالك رضي الله عنه: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى - قال : قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال-: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » .

* * *



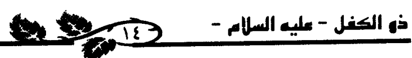
* فضل يونس عليه السلام :

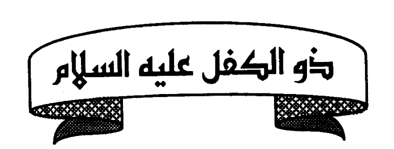
قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين ﴾ وذكره الله تعالى في الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - : قال رسول الله ﷺ : « **لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى** » رواه البخاري من حديث سفيان الثوري .

وقد جاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى في السنة النبوية مثل قوله ﷺ : « **لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى** » وهذا من باب التواضع منه ﷺ .







* ذكر ذي الكفل في القرآن الكريم :

قال الله تعالى بعد قصة أيوب : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ - ٨٦] .

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضًا : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾** ﴾ [ص :٤٥ - ٤٨] .

فذكره في القـرآن مقرونًا مع هؤلاء الأنبيـاء والثناء عليه يدل على أنه نبي وهذا هو المشهور .

* * *

* قصة ذي الكفل واستخلافه بعد اليسع :

وقد روى ابن جرير بسنده عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس فقال : من يتقبل مني بثلاث أستخلفه ؛ يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب. قال فقام رجل تزدريه العين - الازدراء هو الاحتقار أي أنه كان متواضع الهيئة - فقال : أنا فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم ، قال فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا ، فاستخلفه .

قال : فجعل إبليس يقول للشياطين ، عليكم بفلان ، فأعياهم - أتعبهم - ذلك فقال دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : من هذا ؟ قال: شيخ كبير مظلوم ، قال : ففتح الباب ، فجعل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي ما فعلوا وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة - وقت القيلولة بعد الظهر - فقال : إذا رحت فإني آخذ لك بحقك .

فانطلق فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب ، فقال : من

هذا؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت - جلست في مجلس الحكم - فائتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت أجحدوني ، قال : فانطلق فإذا رحت فائتنى ، قال : ففاته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله : لا تدعن أحد يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإني قد شق عليّ النوم - اشتدت حاجتي إلى النوم - فلما كانت تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل : وراءك وراءك . فقال : قد أتيته بالأمس وذكرت له أمري ، فقال : لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة - فتحة - في البيت فتسور - تسلق - منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل ، فاستيقظ الرجل فقال : يا فلان ألم آمرك ؟ قال : أما من قبلي والله فلم تؤت ، فانظر من أين أتيت ؟ قال : فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه ، فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعييتني في كل شيء - أرهقتني - ففعلت كل ما ترى لأغضبك .

فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفَّى به .

أما الأحاديث التي تروى أنه غير نبي فهي ضعيفة وكذلك يروى حديث عن رجل اسمه الكفل فهو غير ذي الكفل النبي .

